صفحات من الذاكرة

غانم الغانم: مناهجنا ابتعدت عن تراثنا

■ همنا صار الدينار والبورصة

أجرى الحوار: جاسم عباس

الرعيل الأول في الكويت تخضرموا فترتي ما قبل النفط وما بعده، فقاسوا مر الاثنتين وذاقوا حلاوتها، عملوا وجاهدوا وتدرجوا، رجالاً ونساء إلى أن حققوا الطموح أو بعضاً منه، ومهما اختلفت مهنهم وظروفهم إلا أن قاسماً مشتركاً يجمعهم هو الحنين إلى الأيام الخوالي.
«القبس» شاركت عدداً من هؤلاء الأفاضل والفاضلات في هذه الاستكانة.

■ هربّت الذهب وتفننت في إخفائه
■ كنا نشد أزر بعضنا.. لا مكسور الخاطر ولا يتيم يسأل عن أبيه
■ كل الصفقات كانت تتم في المقاهي

في مستهل لقائنا مع غانم يوسف شاهين الغانم قال: توفي الشيخ سالم المبارك الصباح الحاكم التاسع سنة ١٩٢١ قبل ان تلدني أمي كما قالت لي، رحمها الله، أي في عام ١٩٢٢، وعمري الآن ٨٥ سنة ولدت في المنطقة المحايدة الداخلية بين فريج الشيوخ وسعود مقابل قصر السيف، هذه المنطقة كانت حساسة فيها الشيوخ واصحاب السفن والتجار، وفيها العمابر وبيوت الأغنياء والنواخذة.

وقال: جدي كان يعمل في تجارة السفن، ولديه أعداد كثيرة من النخيل في البصرة وبالخصيب، وحمدان وأم عجران، وأبومغيرة كلها في العراق.

الطفحة

وتحدث عن سنة الطفحة قال: على الرغم من عدم وجود نهر في الكويت، ولكن دولة الأمس بأهلها العصاميين الذين كونوا البلد، ولم يكونوا اتكاليين ولا يعرفون المقاولات والأسهم، سافروا إلى إيران والعراق والهند قطعوا المحيطات، وكل فلس يجمعونه يضعونه في الدبرة وهي كانت مكتفية من جميع النواحي، وهذه الطفحة بالسفن والبحارة وأرباح محصول اللؤلؤ بملايين الروبيات، سنة ١٩١٢ تجاوزت كل الأرقام والإحصائيات، الكويت دخلت البحر بـ ٨١٢ سفينة و٣٠,٠٠٠ بحار، من كان يتصور أن الكويت كان تتصدر الخيول إلى الهند، وكانت تربى فيها الخيول والأغنام والجمال وقال الشاعر: جلبنا الخيل من وارة حتى العدان، ميناء الكويت من أنشط الموانئ في المنطقة، سفن «جوهرة بريطانيا ونجمة التاج» تنتظر دورها لتفرغ حمولتها، كنا عائلة واحدة أوصلنا الكويت إلى بر الأمان غنية عفيفة، أهل البادية يبيعون على الحضر وكذلك العكس، ولت نقص لأحدهم أي مبلغ يعطى له، أو يدفع قيمة ما اشتراه في السنة المقبلة، الحضر لهم حالالهم في البادية وكذلك العكس، ساعدنا العرب والهند عندما طلب من الشيخ سالم المبارك ان يساعد الايتام في الهند فقدم لهم ٥٠٠ ليرة ذهبية في تلك الفترة عندما طلب منه ذلك الانكليز.

وقال غانم: كانت كل كويتية تقدم ما بيدها واصابعها وجيدها من الذهب للمرحوم سلطان الكليب لكي يوصل هذه المصوغات للمحتاجين خارج الكويت، رحمه الله كان الكليب ينظم كثيراً من الامور الاجتماعية وخاصة البيع والشراء والموازين، كان مديراً للبلدية وعضواً بالمعارف توفي رحمه الله في عام ١٩٥٢.

خوص الخويسان

وتذكر الغانم فريج الخوص بالقرب من سكة «بهيته» سمي بهذا الاسم نسبة لما ينزل فيه من الكميات الكثيرة من الخوص (ورق جريد النخل) والتمور والنخيل، ومن هذه الاوراق تصنع الحصران وغيرها، فكان الفريج بالقرب من البحر، والأوائل لا ينقلون بضاعتهم بعيدة عن الميناء تحاشياً للتكلفة.

وقال: وانا صغير مع اخواني عندما نحضر الارض نجد حبوب الشعير والحنطة، ولم نعرف سبب وجود هذه الحبوب في ذلك الفريج، ومن سكانه العبدالجليل- الهاشم- كركوه- الوزان- الحرز- الجسار.

وفي فريج الخوص اول مدرسة فتحت لتعليم اللغة الانكليزية يديرها رجل مسيحي من العراق، مدرسة يغلب عليها طابع التبشير اكثر من العلم لكنها لم توقف، وفيه ايضا موقع لبيع الجولان (عشب للأغنام) وعمابر عديدة لبيع مستلزمات اهل السفن، ومخازن، وبقالات بالجملة تبيع لاصحاب الأبوام، وهذا الفريج له قصص عجيبة، ومهن وحرف، وله رونق رغم المصاعب، ولكننا يد واحدة نشد ازر بعضنا لامكسور الخاطر، ولا يتم يسأل عن أبيه، كل منا هو الأب والوالي والمسؤول، اصالة واحدة في جسم واحد.

سنة البشوت

وتحدث الغانم عن جناح العرب كما وصفوه، ومن أقوال الكويتيين لاطفالهم (عشت ولبست البشت) وهو دعاء بان يكبر ويلبس ويصبح في عداد الرجال، وفي الماضي كان البشت من مكملات لباس الرجل ويرتديه في المناسبات.

واضاف: في منتصف شهر يناير من عام ١٩٣٠ أصدر المغفور له الشيخ احمد الجابر الصباح امراً بمنع البشت وسميت تلك السنة «سنة البشوت» واستعمال العصا والدقلة، وكما قيل وسمعنا ان هذا القرار كان له صدى في المجتمع الكويتي، والسبب اقتصادي وسياسي ولكن استنكار الناس وعدم استطاعتهم السير بدونه تم العدول عن هذا القرار، لأن البشت يعد زياً وطنيا ولا يمكن التخلي عنه وخصوصا أيام العيد وفصل الشتاء.

القناعة.. سعادة للأبد

وتذكر العادات القيمة والأخلاق العالية، وملكة النفس وهي «القناعة»، سعي وتعب، وسعادة للأبد، هكذا كان الآباء والأجداد كل يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ولا يشغل قلبه بالزائد، ما عندنا مال، ولكن عندنا القوت، وأناس عندهم من التجار والمقتدرين، ولكن عيوننا لا تنظر إلى من هو فوقنا، فكان المدح والشرف وعزة النفس وفضيلة الحرية، ولا نعرف الطمع ولا الرذائل، لأن الطامع دائما يكون ذليلاً مهيناً عند الناس.

وقال: لا أنساها أبداً،، أتذكرها دائما فهي السخية فاعلة المعروف والجود المتمتعة بمكارم الأخلاق الحاجة المرحومة «أم عبدالله الحملي» غذت الكويتيين وارضعتهم من حليبها الطاهر النظيف، وكلما ولدت إحدى امهاتنا قامت بمساعدتها وتطبيبها ووضعت ثديها في فم وليدها، فأكرمتنا انها شجرة نبتت في الجنة، أصبحنا في فريج واحد إخوانا منافعنا واحدة وأضرارنا للجميع، حتى أصبح المعروف لأهله فبسطته الى كل من كان معنا، كانت تجود مع الحاجة إليه.

والآن أطفالنا يفتحون عيونهم وقلوبهم في الحضانة أمامهم الفلبينية والسيلانية، حيث توضع المية «زجاجة حليب» عوضا عن ثدي الأم.

وقال الغانم : لم نعرف الحرام لأنه من أعظم المهلكات وعرفنا أن أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وهو الظلمة والخسران والخبائث والضلالة، إذا وجد أحدنا أي شيء في الأرض يعتبر حراما عليه يوصله لصاحبه ان كلفه اي شيء، يصل الى «مطرب» شخص ينادي في الأسواق والاحياء عن شيء مفقود ومن يجده او يسأل عنه فله الأجر والجزاء من الله «يا من عين البوك جزاه الله خيرا» وكل من يعثر يبحث عن «إمطرب» اين الخيرون؟ أين المحسنون؟ وإذا ضاع طفل هب أهل الحي عرفت (سنة الرحمة). وامراض الفاصة مثل: العاف والملح، والسمط والطنان، وابو قشاش، عالجوها بالكي والاملاح والمسهل، والجفت، والقرط. اطباء مارسوا التطبيب وهم ائمة المساجد، واصحاب المدارس، وكذلك الحلاقون، والعطارون كنا نسميهم «الحواج» منهم الذين ادوا واجبهم: احمد الغانم، حمود الصانع، علي بن فضالة، ابراهيم غريب، المنيفي، الماص العرادي، مساعد العازمي الذي اشتهر بالتلقيح ضد الجدري، والهندي وحتى النساء لم يبخلن هذه ام حمود العازمية، وهيا الناقة وبنت بوطيبان وغيرهن ممن اشتهرن بالتوليد.

دور المقاهي

وتحدث عن المقاهي التي كانت منتشرة وتشكل جانبا مهما من النشاط الاجتماعي والاقتصادي، وكان يتوافد عليها المواطنون في اوقات فراغهم يقضون فيها ساعات طويلة في الاحاديث والصفقات التجارية وعن البحر.

وقال: كل مقهى يتميز بمجموعة متجانسة واصحاب المهنة الواحدة مثلا: قهوة للتجار، وقهوة للطواويش، واخرى للحمارة، والطراريح، واهل البادية لهم قهوة، فهذه المقاهي كانت مجلسا يوميا تقدم القهوة والشاي، والناملية، وبعضها تقدم «الدندرمة» أيس كريم، ومنها تقدم الاغنيات العراقية والقرآن من خلال الاسطوانات التي تحركها البشتختات (الغرامافون) مع تمديد الاسلاك الموصلة الى الراديوات.

وتذكر الغانم صوت الاذان الذي انبعث من بوق البشتختة نتيجة احتكاك الابرة بالاسطوانة وعلى البوق صورة كلب، قام احد ابناء البادية بالشكوى ضد صاحب القهوة (عباس وزمون) عند الشيخ عبدالله الاحمد الصباح رئيس الامن العام المعروف بالصرامة والشدة في العقوبة على المجرمين، بان صاحب القهوة استطاع ان يسمع الناس الاذان عن طريق صوت الكلب، وهذا لا يجوز فاستدعاهما الشيخ، وبينا له ان السلك كان موصولا من الراديو الذي اذاع الاذان الى البوق فتفهم الشيخ الامر وبين لصاحبنا الشاكي.

وقال: ان الوافد الاجنبي او العربي لا يدخل في اي صفقة في المقاهي، وكل الصفقات تتم بالمقاهي، واستفادوا من خيرات الكويت ومن رجالاتها، ولكن وللأسف الشديد بعضهم سرقوا الذهب في الاربعينات وغشوا الناس عندما اضافوا الحديد مع الذهب وهم من باعة وخبراء في المعادن الذين قدموا من العراق، وفي بداية الستينات عادوا الى بلادهم، ولكن الصاغة من اهل الديرة يضرب بهم المثل في التعامل والاستقامة، «المستقيم يستمر، والمعوج يهرب»، والشرفاء ما زالوا والمهنة انتقلت من الاجداد الى الابناء والآن بيد الاحفاد وهم عصب الحياة بالكويت بهذا المعدن الثمين.

عملت بالتهريب

وقال: عملت بتهريب الذهب من بداية عام ١٩٤١ حتى ١٩٤٧، استخدمت كل الطرق وتفننت في اخفائه في الخيش مع الفحم الذي نطحنه، وبين ملابسنا وفي الاحذية، وفي المخابئ السرية داخل السفينة وفي الاشرعة، ومن ادوات التهريب الاتفاق مع اصحاب السفن الصغيرة التابعة لصيادي الاسماك الهنود ليلا ليأتونا في عرض البحر بعيدا عن الشواطئ الهندية، والتهريب كان بالحلويات لإيهام رجال الجمارك.

وقال: نشطت بتجارة الذهب (تهريب) من والى الهند، ولكن آخر صفقة بالتهريب قبضوا علينا بسبب اهل مسقط وهم يلعبون الجنجفة اعترفوا بالكمية الموجودة عندهم. وبدأ التفتيش الدقيق، وانا القيت كل الذهب في البحر خوفا من الاعتقال والسجن، ومصادرة الجواز.

وقال: سلمت مرات عندما كنت اخلط الذهب مع العسل، وكشبار الخشب (سقط النجارة او قشور الاخشاب)، وداخل اعمدة الاسرة الخشبية، وتحت السمك الفاسد، و«منز» الاطفال (سرير الطفل يصنع من جريد النخل)، واحيانا كنت اضع كل ١٠ تولات تسمى «بسكوته» على شكل اصابع نضعها داخل احزمة البطن، وسبب التهريب ان الحكومة الهندية تستورد الذهب من اميركا التولة الواحدة بـ ١٥٠ روبية اما نحن فنبيعها بـ ١٠٠ روبية، وكانوا دائما يستفسرون عن سعر الذهب لماذا في الهبوط؟ عرفوا اخيرا ان هناك تهريبا من الكويت ومسقط، وفي عام ١٩٤٨ توقفنا عن التهريب بعد ان تحسنت الحالة المعيشية بعد ظهور النفط، واتذكر من الكويتيين الذين اوقفوهم وسحبت جوازاتهم رجعوا الكويت بطرق غير مشروعة بدون جوازات.

صباغ الدشاديش

وتحدث غانم عن حرفة مهمة كانت الحاجة لها ضرورية وإذا سمعنا عن الصباغة فهي كلمة تعني انها للملابس، فهناك اناس متخصصون يجيدون صبغ الاقمشة أو الدشاديش الرجالية او النسائية بأي لون يختاره المشتري، وهذه المواد تباع عند العطارين تجلب من الهند وايران، مصنوعة من الاعشاب والنباتات وثمارها، ومن قشور الرمان والحناء، وهي عملية سهلة تحتاج الى غلي الماء ثم تضاف المادة المطلوبة.

وقال: الكويتي كان يصبغ دشداشته حتى يبين امام الناس ان له عدة دشاديش، وهي واحدة ما غيرها.

وكان الصباغ يعمل إما بالاجرة فيستلم الملابس المراد صبغها، او انه يشتري كمية من القماش يقوم هو بصبغها لبيعها الى محلات القماش (البزازين).

ذكريات البراح

وقال: اجتماعنا، لقاؤنا، العابنا، عرضة الأعياد، المراجيح، جلوس كبارنا، البراح (جمعها البرايح) اي الساحات، وهذه البراحة لها ذكريات في نفوسنا، وكم كنت اتمنى ان تقام مثل هذه البرايح في احيائنا الحديثة حتى نستعيد تلك العلاقات الاخوية، وباعة الباجلا والسمسمية والايدي العاملة التي كانت تعمل الزبلان والحصران والمهاف في هذا المتسع من الارض بين البيوت وكذلك صناعة الالعاب الخاصة بالاولاد، وكنا نقول: «من تعشى تمشى والوعد بالبراحة». وحتى موعد الصلاة وقبل الاذان كان في البراحة.

وقال غانم: أرجو أن تعاد تلك العادات الطيبة العطرة التي مازالت ذكراها في نفوسنا ومن هذه البرايح: براحة السبعان - مبارك - الماص - ابن شرف - اطبيخ - البحارنة - الفوادره - القناعات - إمجيبل - الرندي - القروية - الناصر - واكبرها واعظمها ساحة الصفاة وهي اكبر من البراحة وكنا نجتمع فيها في كل المناسبات، وهي الساحة المفضلة للجلوس وقت العصر لمشاهدة الباعة والمارين.

● غانم يوسف شاهين الغانم

من يتصور أن الكويت كانت تصدر الخيل إلى الهند ؟

■ الكويتي يصبغ دشداشته بعدة ألوان فيظهر كأنه عنده عدة دشاديش

■ استقبلنا وفد المعلمين الفلسطينيين في المطلاع بثياب الكشافة

كله في البراحة يبحثون ويتجولون حتى يجدوه، لم نعرف الايذاء ولا الإهانة، ولا الاحتقار، وحتى الفقير يستعفف عن السؤال، ولا يذل نفسه، الناس يعرفونه ويقدمون له في السر، وفقيرنا كان يعرف ان المسألة لا تحل، القناعة من فاتته تدنس.

التطبيب الشعبي كان شائعاً

ويقول الغانم عن العلاج: الكويتي ما كان يهمل نفسه، ولا يؤجل علاجه، فكان دائماً يعالج نفسه بالأدوية الموجودة في متناول يده، ومن عاداته بدء يوم الجمعة بشرب كوب من «عشرج» النبات الطبي يسحق وتغلى أوراقه بالماء وتشرب كمسهل لغسل المعدة، ويعالج الالتهابات والروماتيزم والكحة بالاعشاب التي استعملها وجربها، ومغلي النبات شراب منشط في الصيف ايضا يعرفه.

ويضيف: رغم تعرض الكويت لكثير من الاوبئة مثل: الطاعون، الكوليرا، الجدري، وفي ظل تردي الاحوال الصحية وغياب الطب الحديث، لكن التطبيب الشعبي كان شائعا واعطوا النظافة حقها في المسكن والملبس والمأكل، ولقد قضى الآباء والاجداد على مرض الطاعون عام ١٧٧٣، وصبروا وثابروا على الطاعون الثاني عام ١٨٣١، والكوليرا ١٨٦٥ و١٨٧١، والجدري، ومرض الانفلونزا الذي اجتاح عام ١٩١٨ وباء سنته

■ في الماضي كانوا يتحلون بالقيم .. والطامع يكون ذليلاً مهيناً بين الناس

■ التطبيب الشعبي كان على يد أئمة المساجد والحلاقين والعطارين

أولادنا لايعرفون ماضينا

وعن التعليم قال غانم: أنا ومن معي من الطلبة استقبلنا الوفد الفلسطيني الذي درسنا في المباركية عام ١٩٣٦ بعد ان تغير النظام التعليمي من العراقي الى الفلسطيني، انتظرناهم ٣٦ ساعة في المطلاع مع ملابس الكشفية بسبب التأخير، كان منهم الاساتذة: محمد المعربي - خالد العيد - عمر الدجاني - فيصل العظمة، واستقبلهم الشيخ عبدالله الجابر الصباح عند بوابة الجهراء، وكانوا يأتون الى المدرسة على الدراجات الهوائية وبعضهم ركبوا على الحمير، نظموا الفصول وبعثوا فينا الروح القومية بالاناشيد الحماسية، وقال: الآن وللأسف مناهجنا بعيدة حتى عن التراث القديم أولادنا لا يعرفون عن ماضينا، غدا سيظهرون مثل الطراثيث، والواحد منهم كويتي فقط اسما، التربية لا توجه الى الاصالة القديمة، همنا الدنانير والمقاولات والبورصة، اين ما ضينا؟

«لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة لهم إذا جهالهم سادوا»
«تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولّت فبالأشرار تنقاد»

علينا ان تختار للمسؤولية دائما قيادات واعية مخلصة نزيهة للكويت ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهذا ما قاله الشاعر. عليها ان ترسم الطريق لابنائنا.